



**JOURNAL OF THE
ARAB AMERICAN UNIVERSITY**
مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث

الهجرة والهوية في سياقات الانتقال الهجري:

**دراسة سوسيولوجيا المهاجرين من إفريقيا؛ جنوب الصحراء، في المجتمع
المغربي**

ياسين البجداني

قسم العلوم الإنسانية، كلية اللغات والفنون والعلوم الإنسانية بسطات، جامعة الحسن الأول، المغرب

الباحث المراسل: y.elboudjaini@uap.ac.ma

Received: 20/08/2024. Revised: 05/11/2024. Accepted: 27/05/2025. Published: 31/03/2026

DIO: 10.35517/AAUP-2026.V12.1.13

المخلص

تحاول هذه الورقة البحثية فهم التجارب الهجرية والاستراتيجيات الهويةية لدى المهاجرين المتحدرين من المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء، وفقاً لمقاربة سوسيولوجية، بالاعتماد على عمل إميريقي نوعي. وقد توصلت إلى أن الهجرة في المجتمعات الإفريقية هي نتيجة للاستعمار والتقسيم الدولي للعمل، إلى جانب هشاشة الروابط الاجتماعية والسعي إلى ترميمها وتقويتها عبر الانتقال إلى فعل المغامرة. كما أن السياسات الهجرية والتنمية المعتمدة على المستويين الإفريقي والأوروبي لم تسهم في جعل الهجرات آمنة، كما يراهن الخطاب الدولي والإقليمي الذي تقدمه المنظمات الدولية والدول الأوروبية؛ أي الدول التي حددتها الذات المهاجرة بوصفها وجهات لمشاريعها الهجرية، بناءً على الواقع الاجتماعي والتنموي والحقوقي الذي أنتجته الأفعال السياسية للدول الرأسمالية خلال الاستعمار، والنخب الوطنية في مرحلة ما بعد الاستعمار الأوروبي. بل جعلتها هذه السياسات مكلفة على المستويات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلائقية، كما يظهر في تجارب المهاجرين الاجتماعية واستراتيجياتهم الهويةية لتحقيق مشاريعهم الهجرية والتكيف في مجتمعات العبور.

تحتاج الورقة بأنه بدلاً من بناء الهجرة الإفريقية، بوصفها مشكلة اجتماعية، فينبغي على الدول التعاون لمحاربة أشكالها غير النظامية، مع النظر إلى المهاجرين بوصفهم ضحايا شبكات الاتجار بالبشر، فيجب أن ينظر إليهم بوصفهم ذواتاً إنسانية واعية ومدركة، قادرة على التفكير العقلاني والاستراتيجي، وتقدير الحسابات الاقتصادية لمغامراتها. فالفعل الهجري لديها تعبير عن الواقع التنموي لبلدانها الأصلية، الذي هو نتاج للتدخلات الكولونيالية والأفعال السياسية للنخب المحلية، إلى جانب فقدانها الأمل في المستقبل واقتناعها الذاتي بضرورة الإسهام في التغيير المجتمعي من خلال تغيير واقع الذات وجماعات الانتماء.

وتشكل التجارب الهجرية لدى المهاجرين الأفارقة تجارب اجتماعية، تمنح لها معاني مبنية على مساراتهم البيوغرافية وديناميات تفاعلاتهم الاجتماعية، ما أسهم ويسهم في بلورة استراتيجيات هويةية، تهدف إلى تحقيق التماسك الهويي والتكيف الاجتماعي في المجتمع المغربي، تمهيداً لتحقيق المشروع الهجري في أوروبا من خلال تعبئة الذات، بعدما تم حرمانها من فرص تحصيل الخبرات المادية والرمزية التي يمكن أن تمكنها من الخوض في تجربة الحياة وفقاً للمشروع الشخصي. وفي ذلك تدبير للحظتها الوجودية، وإبراز لقدراتها على اختيار نموذج للعيش والصراع من أجل إثبات الذات في مناخ سياسي دولي، يسعى إلى تكريس الهشاشة وقهر الذات الإنسانية وجعلها تابعة، تخدم غايات الإمبريالية والطبقات المهيمنة.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، الهوية الاجتماعية، التجارب الهجرية (أو الهجراتية)، الاستراتيجيات الهويةية (أو الهويةية)، المهاجرون الأفارقة جنوب الصحراء، المجتمع المغربي

1. المقدمة

تعدّ علاقة الهجرة بالهوية من أبرز القضايا السوسولوجية المطروحة على طاولة العلوم الإنسانية والاجتماعية، خاصة السوسولوجيا، والسيكولوجيا، والسيكوسوسولوجيا، والأنثروبولوجيا في العصر الراهن، وذلك نظرًا لارتفاع معدلات الهجرة في جميع أنحاء العالم، وارتباطها بقضايا وظواهر غير وطنية من قبيل: ظواهر التطرف الديني والإرهاب، وقضايا الانتماءات والهويات الجماعية، وقضايا التنمية المستدامة، وحقوق الإنسان ... وتعدّ الأبعاد المتحركة في دينامياتها: (البعد المجالي، والاقتصادي، والسياسي، والجيوسياسي، والاجتماعي، والثقافي ...). فالهجرة أصبحت تيمة أساسية في كل الخطابات السياسية والإعلامية ... ويستثمرها الفاعلون السياسيون في استعراض البرامج السياسية والمشاريع الاجتماعية والسياسات العمومية. كما أصبح المهاجرون واللاجئون جماعة أساسية في ديناميات التغيير الاجتماعي وسيرورات التنمية المستدامة في جميع المجتمعات الإنسانية، ما دفع مجموعة من الباحثين إلى اعتداد عصرنا الحالي عصر الهجرة بامتياز (ستيفن مارك، 2013؛ غيدنز، 2005).

وعلى المستوى الدولي، قدرت الأمم المتحدة خلال سنة 2020، عدد المهاجرين على مستوى العالم بـ 281 مليون مهاجر دولي، وهو عدد يعادل نسبة 3.6% من السكان عبر العالم. وهذا يعني أنّ الأقلية فقط هي التي تهجر، أما الأغلبية فتمكث في بلدانها الأصلية التي ازدادت فيها. إذن فعدم الهجرة هو المعيار الأساسي، كما أنّ أغلبية المهاجرين يتحركون وينتقلون داخل الدول والقارات، والأقلية هي التي تنتقل عبر الحدود الدولية (Vitorino, 2021, p. xii). وخلال السنة نفسها استضافت البلدان العربية 41.4 مليون مهاجر ولاجئ، يمثلون نحو 15% من المهاجرين الدوليين واللاجئين في العالم (الأمم المتحدة، 2022، صفحة 7).

وتحليلنا المعطيات السابقة إلى أن النقاشات التي تصاحب معدلات الهجرة على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية، مبالغ فيها، وأن التعبير عن القلق والخوف من المهاجرين في إطار ما يسمى برهاب الأجانب أو الإسلام فريباً وغيرها، ما هي إلا محاولات لبناء الهجرة بوصفها مشكلة اجتماعية، ينبغي معالجتها والتحكم في تدفقاتها وفق الرهانات السياسية والأيدولوجية الضيقة، والتغاضي عن الحقوق الكونية الإنسانية للمهاجرين وأفراد أسرهم، ونكران حقيقة الهجرة التي تتمثل في كونها جزءاً أساسياً من الحياة البشرية، وفعالاً إنسانياً وكونياً لجأ إليه الإنسان منذ القدم. وقبل اتخاذ الهجرة ورقة سياسية-انتخابية، فينبغي التذكر بأنها وضعية إنسانية ينبغي تدبيرها بطريقة إنسانية كونية، وأن التجارب الهجرية للمهاجرين تجارب اجتماعية إنسانية، من خلالها يمنح الفاعلون معاني للعالم الذي يعيشون فيه، وللحياة التي يخوضون غمار عيشها (البجديني، 2024 ب، الصفحات 5-6).

وتحتل الفئة الاجتماعية، التي تحاول هذه الورقة تسليط الضوء عليها، موقعاً مختلفاً، فقد انتقلت داخل القارة الإفريقية، من إفريقيا جنوب الصحراء إلى شمال إفريقيا، وطموحها هو القارة الأوروبية بالدرجة الأولى. لكن السياسات الهجرية المعتمدة جعلت منها فئة "مقيمة بالفعل". سياسياً هي فئة اجتماعية مقيمة نظراً لسياسات الهجرة واللجوء المعتمدة، وهنا نشير، بالدرجة الأولى، إلى قانون 2003 المتعلق بدخول الأجانب إلى المملكة المغربية وإقامتهم فيها، وبالهجرة غير الشرعية منذ نوفمبر سنة 2003، والاستراتيجية الوطنية للهجرة واللجوء (الوزارة المكلفة بالمغاربة المقيمين بالخارج، 2014)، التي تم صياغتها بناءً على خلاصات تقرير المجلس الوطني لحقوق الإنسان لسنة 2013 (المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2013). ولكن اجتماعياً هي فئة اجتماعية تعيش أوضاعاً سوسيو-اقتصادية هشّة (البجديني، 2024 أ) لها مشروع هجري نحو أوروبا. وقد حاولت هذه الفئة التعبير عن رغباتها تلك بكل الأساليب الفردية، وقد صارت الآن تعبر عنها بشكل جمعي وجماعي، عن طريق تنظيم اقتحامات جماعية للحدود.

2. مراجعة الأدبيات السابقة

توصل المجلس الوطني لحقوق الإنسان (2013) إلى أنّ المقاربة القائمة على حقوق الإنسان، سواء على المستوى الوطني أو الدولي، هي البعد الأساسي والوحيد الذي من شأنه ضمان حقوق المهاجرين الأساسية، بغض النظر عن وضعهم الإداري. كما أنها بُعد ضروري لبلورة سياسات هجرية طويلة المدى، تضمن الحقوق وتتيح إمكانية التعايش الديمقراطي والتبادل المنمّر بين الثقافات والحضارات. وقد خلص المجلس إلى أنّ المغرب يعد أرض هجرة بامتياز منذ موجة الهجرة الأولى التي انطلقت مع الحرب العالمية الأولى، وهو أرض استقبال وتوافد، بالرغم من أنّ الوعي الجماعي لم يستوعب بعد هذا المعطى التاريخي. ولا يمكن أن يبقى بعيداً عن الوضع المضطرب في بعض الدول الإفريقية، ولا عن آثار السياسات الصارمة التي تعتمدها أوروبا لمراقبة حدودها الخارجية. وبذلك دخل المغرب في خانة الدول المعنية بعولمة التنقلات البشرية. لذلك أوصى المجلس بسن سياسات إنسانية تجاه المهاجرين، واحترام المواثيق والصكوك الدولية في التعامل معهم بغض النظر عن أصلهم ووضعهم القانوني. كما أوصى بتنظيم عملية التسوية الاستثنائية، ودعا هيئات المجتمع المدني والمنظمات الدولية والبلدان الأوروبية إلى دعم هذه العملية بشرياً ومالياً. كما شدد على ضرورة انطلاق المؤسسات الدستورية

والوطنية لبحث قضية المهاجرين والأجانب بالمغرب، وسن سياسات تدمجهم في المجتمع المغربي، وفق مقارنة حقوقية إنسانية كونية، يمكن أن تجعل المغرب نموذجًا يحتذى به في هذا المجال، على مستوى دول الجنوب على الأقل (المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2013، الصفحات 1-8).

وتوصل الباحث "صيري أحو" (2016) في دراسته حول المغرب والهجرة القادمة من إفريقيا جنوب الصحراء، إلى أن الموقع الجغرافي للمغرب، القريب من أوروبا، وطباع المجتمع المغربي المتسامح، جعله نقطة جذب ومساواة مفضلاً للمهاجرين الأفارقة، الذين يتجمعون في غابات محيطة بمدن شمال المغرب وشرقه، في انتظار "الفرصة الذهبية" للهجرة إلى "الفرديوس الأوروبي". غير أن عسر المراقبة على الحدود الخارجية لدول شينغن، وشدتها، وتبنيها سياسة موحدة في ميدان الهجرة، وخلقها وكالات مختصة في المراقبة "فرونتكس"، إلى جانب تعاقدها مع دول الجنوب، ومنها المغرب، في إطار التدبير التعاوني للهجرة، من أجل محاربة الهجرة غير "النظامية"، كل ذلك جعل المغرب بلد استقبال (الصفحات 2-3).

ويسعى المغرب إلى نهج خطة سياسية واستراتيجية جديدة لتعزيز موقعه في إفريقيا. كما أن حاجته لضمان ود الدول الإفريقية، وفك أغاز العملية الأمنية في إطار نهج الاستباقي، وتقديره للجانب الإنساني والتضامني، جعله يقر بوجود أعداد من المهاجرين يمثلون المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء فوق إقليمه، يقدر بالآلاف، معلنا تسوية استثنائية. لكن التطبيع مع أوضاع المهاجرين الإدارية، لن يكون مكتملاً إلا إذا اقترن بإجراءات وتدابير مادية، من خلال فتح المنافذ الحقيقية للاندماج، لضمان حقوق المهاجرين وحرياتهم وأبنائهم في التعليم، والشغل، والصحة، والسكن، وغيرها من الحقوق التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالموارد المالية للمغرب. كما يتطلب الأمر تنفيذ حملات توعوية حول دور الهجرة والتنوع في إغناء المجتمعات ومناعتها، درءاً لأعمال عنصرية قد تتولد عن فعل الاحتكاك اليومي. والتحسيس نفسه مطلوب بين المهاجرين ليراعوا قيم مجتمع الاستقبال المغربي ومشاعره في سلوكهم وتصرفاتهم؛ تجنباً لسقوطهم في المحظورات التي يعاقب عليها القانون. فالهجرة معادلات صعبة، وفي خضمها يوجد الإنسان، الذي يجب أن يستأثر باهتمام الجميع (أحو، 2016، الصفحات 2-3).

وفي إطار بحثها الوطني حول الهجرة الدولية، أكدت المندوبية السامية للتخطيط أن المغرب أصبح بلداً للعبور والهجرة الوافدة في العقود الأخيرة. فقد سجل الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 2014 وجود 86000 مقيم. ويعرف المغرب توافد مجموعة من المهاجرين من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، ما دفعه إلى اعتماد الاستراتيجية الوطنية للهجرة واللجوء منذ سنة 2013، والتي مكنته من تسوية أوضاع 50000 مهاجر بين عامي 2014-2018 (Haut-Commissariat au Plan, 2020, p. 3).

ويتضح من الدراسات السابقة المنجزة حول موضوع المهاجرين الأفارقة بالمغرب أن توافد هذه الفئة على المجتمع المغربي يعد مستجداً، ويرتبط بسياسات هجرية تعاونية بين أوروبا ودول الجنوب. كما تقترح ضرورة إدماجهم في المجتمع المغربي وفق مقارنة إنسانية وحقوقية كونية. ومع ذلك، يظهر الحرص، سواء بشكل قصدي أو غير قصدي، على تجنب تعميق النقاش حول التحديات الاجتماعية والاقتصادية والمالية التي يمكن أن تطرحها سيرورة الإدماج الاجتماعي للمهاجرين في السياق المغربي، الذي تتحدد ملامحه الكبرى بازواجية ثقافية بين التقليد والحداثة، وبهيمنة واضحة للخطاب، فضلاً عن تعثر النماذج التنموية السابقة، ومزلق الفعل الحكومي، وضعف ثقافة المسؤولية المجتمعية والحضارية، التي يمكن أن تنقل مبدأ ربط المسؤولية بالمحاسبة من الخطاب الدستوري إلى الفعل العمومي.

إن توافد المهاجرين الأفارقة على المغرب، ليس أمراً جديداً، وإنما هو أمر تاريخي. وتواجههم في مختلف المدن المغربية، يرتبط بالدرجة الأولى بالهشاشة التي صارت تعرفها روابطهم الاجتماعية (البجديني، 2024 أ)، والتغيرات التي تطرأ على هوياتهم الاجتماعية والثقافية (البجديني، 2021). إن تأمل أوضاع هذه الفئة يعكس ملامح الانتقال الهجري الذي يعرفه المجتمع المغربي، الذي هو نتاج لعوامل جيو-سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، ورهانات أمنية وأيديولوجية.

لقد أصبحت هذه الفئة جزءاً أساسياً من الهندسة الاجتماعية للمجتمع المغربي، وتسعى جاهدة إلى انتزاع الاعتراف الاجتماعي والمؤسستي بكيانها. والحق أن أوضاعها تكشف عن مستوى دول الشمال والجنوب معاً في مجال حقوق الإنسان والديمقراطية. فتتناضل بأساليبها الخاصة من أجل انتزاع أبسط حقوقها، وهي الحق في الوجود، والتمتع بحقوق المواطنة على تراب من اختيارها، والإسهام في تغيير المجتمعات، والتبادل الثقافي، والتعبير عن انتمائها للإنسانية. وفي سعيها هذا، تجد نفسها أمام وضعيات أنطولوجية لا مفكر فيها، قد تشكل لحظات فارقة في مساراتها البيوجغرافية، وقد تؤثر في سيرورات البناء الاجتماعي لهوياتها الفردية والجماعية والحضارية، ما قد يدفعها إلى مقاومة السياسات الوطنية والإقليمية والدولية، الأمر الذي لا تمنح له الأدبيات السابقة ما يستحقه من الدرس والتحليل، وهو ما تحاول هذه الورقة طرحه للنقاش السوسيوولوجي في دراسات الهجرة، مع الوعي بحدودها الإبيستيمولوجية.

3. منهجية البحث

كان المغرب لمدة طويلة بلداً مرسلًا للمهاجرين ومستقبلاً لهم، وتحول انطلاقاً من التسعينيات إلى بلد للعبور نحو "الفرانس الأوروبي". وفي الوقت الذي يواجه فيه مجموعة من التغيرات الديموغرافية التي تتمثل في تباطؤ النمو السكاني، حيث بلغ معدل متوسط النمو السكاني بالمغرب قدر 0.85% بين سنة 2014 و2024 بعد أن كان 1.25% بين 2004 و2014، و1.38% بين 1994 و2004 (المنديبية السامية للتخطيط، 2024، صفحة 7). فإنه أمام تحديات تنموية وهجرية وحقوقية جديدة، ذلك أنّ انخراطه إلى جانب الدول الأوروبية في الاتفاقيات الهادفة إلى محاربة الهجرة السرية أو غير النظامية، جعله يواجه تحديات متنوعة بخصوص استقبال المهاجرين واللاجئين، الشيء الذي فرض سياسات جديدة في مجال الهجرة واللجوء، ليتحول المغرب -رسمياً- إلى بلد استقبال للمهاجرين سواء من إفريقيا جنوب الصحراء أو الشرق الأوسط أو من دول أخرى، مثله في ذلك مثل البلدان الأوروبية الغربية. لكن، للسياسة المغربية الهجرية خصوصية، فالمملكة المغربية لم تعتمد هذه السياسات لمجابهة نقص اليد العاملة أو من أجل تحقيق إقلاص اقتصادي، وإنما فرضتها عليها ظروف إقليمية ودولية وواقع اجتماعي يتعين تدبيره. وهذا مؤشر مهم على وجود انتقال هجري عالمي، يتمثل في تحول الدول إلى احتلال كل المواقع الهجرية (دول مرسله، مستقبله، للعبور)، دون أن يعكس ذلك النماذج الكلاسيكية للدول المستقبلية، التي كانت نماذج للدول الاجتماعية، لها القدرة على الإدماج الاقتصادي والاجتماعي في الحياة العامة. وأطلقت المملكة المغربية ما بين 2014 و2018 عمليتين استثنائيتين لتسوية الأوضاع الإدارية والقانونية للمهاجرين وطالبي اللجوء، وقد بلغ عدد طلبات تسوية الوضعية التي تم التقدم بها أكثر من 56000 طلب، وتم تسوية أوضاع 50000 مهاجر (Haut-Commissariat au Plan, 2020, p. 3؛ المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، 2018/37، صفحة 14). وهنا لا بد من التأكيد على أن العدد الحقيقي للمهاجرين "السريين" ما زال خفياً، في ظل تضارب الأرقام التي تدلي بها المؤسسات ومنظمات المجتمع المدني. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد صرح وزير الداخلية المغربي، بمناسبة الإفصاح عن نية المغرب لتسوية أوضاع 850 لاجئاً و25 ألف مهاجر، بأنه يوجد في المغرب ما بين (25 - 40) ألف مهاجر (ألحو، 2016)، لكنه سرعان ما تم الاعتراف بـ 56000 مهاجر ولاجئ، تقدموا بطلبات لتسوية أوضاعهم القانونية فوق التراب المغربي. ويصعب كثيراً تقدير العدد الحقيقي في ظل توافد المهاجرين بشكل سري إلى المغرب، وبالرغم من ذلك، فإن بعض المؤسسات الاستشارية تقدر عددهم بـ 20000 (المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، 2018/37، صفحة 14)، وقد لا نبالغ إذا اعتقدنا أن العدد الحقيقي للمهاجرين واللاجئين والحالمين بالهجرة بالمغرب هو "رقم أسود"، مادام أن دينامياتها تتم خارج ضوابط النسق ورهاناته الأمنية والأيدولوجية (البجداني، 2021، صفحة 145).

إنّ تزايد الاهتمام بالهجرة في الوقت المعاصر، لا يعني بالضرورة أنها موضوع جديد للسوسيولوجيا. لأنّ هذه الأخيرة اهتمت بها خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، خاصة في المجتمعات الأنجلوسكسونية، غير أن رواد "مدرسة شيكاغو"، الذين دشّنوا هذه الانطلاقة الأولى لسوسيولوجيا الهجرة، اهتموا بها من زاوية تأثيرها في ظهور مجموعة من المشكلات الحضرية في المجتمعات المضيفة (المالكي، 2015، صفحة 115). الشيء الذي رسخ تقليداً في سوسيولوجيا الهجرات، تمثل في دراسة الهجرة بوصفها مشكلة اجتماعية تستدعي التدخل الاجتماعي. ونرى أن النظر إلى الهجرة بوصفها مشكلة، وليس بناءً اجتماعياً، يشكل عائقاً إستمولوجياً، وأن سوسيولوجيا الهجرة في الوقت المعاصر عليها أن تشتغل وفق جبهتين: الأولى هي فهم الديناميات الهجرية الدولية والمحلية، والثانية التأسيس لسوسيولوجيا الهجرية. ذلك أن سوسيولوجيا المعرفة صارت معطى أساسياً لتطوير البحث العلمي في سياقتنا (البجداني، 2024 ب).

وتعرضت النظريات الكلاسيكية التي تعدّ الهجرة مشكلة اجتماعية محكومة بعوامل الجذب وعوامل الطرد، لانتقادات لاذعة طرحتها مجموعة من الباحثين في مختلف التخصصات العلمية؛ لأنها تقدم تفسيرات ساذجة ومغالية في التبسيط لعملية مركبة ومعقدة، في حين حاول السوسيولوجيون المحدثون النظر في الممارسات الهجرية، بوصفها نظاماً ينجم عن التفاعل بين ما هو ماكرو سوسيولوجي وما هو ميكرو سوسيولوجي (غيدنز، 2005، صفحة 334).

إنّ تجديد المقاربات والبراديجمات الكلاسيكية لا ينكر وجود أسباب تدفع الفرد إلى الانتقال إلى الفعل الهجري، وإنما يحاول فهم تلك الأسباب في إطارها البنوي الذي يشمل — إلى جانب ما هو اقتصادي-اجتماعي (الفقر، والبطالة، ...) — ما هو سياسي (الحروب والصراعات الإثنية...)، وعلائقي (يرتبط بالشبكات الاجتماعية وشبكة العلاقات الاجتماعية المؤطرة في عمليات اجتماعية...). فالانتقال من مجتمع إلى آخر ليس انتقالاً من مجال جغرافي إلى آخر فحسب، وإنما فعل اجتماعي بالمعنى الفايبري، الذي يقتضي فهم الحوافز التي أنتجته (Weber, 1995). لأنها تكتسي أهمية بالغة في دفع الفاعلين للانتقال إلى الفعل الهجري، الذي يُصاحب - بدوره - مجموعة من المشاعر والوضعية الاجتماعية الهجرية والتثقيفية. الشيء الذي قد يدفع الفاعلين إلى بلورة مجموعة من الاستراتيجيات التدييرية والهجرية والهوياتية بقصد تحقيق مشاريعهم الهجرية من جهة، والتكيف الاجتماعي في المجتمعات المضيفة من جهة أخرى. وعلى هذا الأساس يمكن صياغة إشكالية هذه الورقة البحثية في الأسئلة الآتية:

كيف تشكل التجارب الهجرية لمهاجري إفريقيا جنوب الصحراء، تجارب اجتماعية ومسارات بيوغرافية فارقة؟ وبأي كيفية تؤثر هذه التجارب في هوياتهم الاجتماعية وتدفعهم إلى إعادة بنائها وفق رهانات هجرية وأنطولوجية؟ وما طبيعة الاستراتيجيات الهوياتية التي يعتمدها المهاجرون الأفارقة؟ وهل تمكنهم من تدبير أوضاعهم الاجتماعية المعيشة ومشاريعهم الهجرية؟

لقد حاولنا استقراء الإشكالية المطروحة من خلال إنجاز بحث ميداني (البجداني، 2019) هدف إلى فحص مدى صدقية الفرضية التي انطلقنا منها، والتي افترضت أن التجارب الهجرية للمهاجرين الأفارقة هي تجارب اجتماعية محكومة بمنطقيات اجتماعية واستراتيجية ذاتية، وتشكل لحظات فارقة في مساراتهم الأنطولوجية؛ لأنها تمكنهم من إبراز ذاتهم وفعاليتهم في جميع المجتمعات، خاصة في سياقات العبور والانتقال الهجري. وهذه الفعالية البشرية تظهر في الاستراتيجيات الهوياتية التي يعتمدها بقصد التكيف مع البيئة الاجتماعية-الثقافية والاقتصادية والجيوسياسية، وإعادة بناء هويتهم الاجتماعية وفق رهاناتهم الأنطولوجية والبراغماتية، وفي ذلك مقاومة للسياسات التي تحاول تحريم الذات الإنسانية من حقوقها الكونية، خاصة الحق في الهجرة والحركة والمواطنة العابرة للأوطان.

وشارك في العمل الأثنوجرافي خمسة عشر مهاجرًا، يتحدرون من دول إفريقيا جنوب الصحراء (غينيا، وساحل العاج، والكاميرون، ومالي)، مقيمون بشكل مؤقت بمدينة الرباط عاصمة المغرب. وتم اعتماد أداتين لجمع المعطيات وهي: الملاحظة المباشرة والمقابلات شبه الموجهة، ومنهجين لبناء فهم سوسيلوجي للتجارب الهجرية والاستراتيجيات الهجرية للمهاجرين الأفارقة في المجتمع المغربي، وهما التصنيف الموضوعاتي Thematic Analysis وتحليل المحتوى Content Analysis.

وطور البحث مقاربه في الفهم والتأويل استنادًا إلى أطر نظرية تستلهم أسسها من سوسيلوجيا التجربة الاجتماعية وسيكوسوسيلوجيا الهوية. بناءً على ذلك، قدمنا محاولة سوسيلوجية لفهم الديناميات الهجرية والهوياتية في عالمنا المعاصر من زاوية تجارب الفاعلين الاجتماعيين، بالمعنى الذي يشمل تأويلاتهم لها، واستراتيجياتهم في تدبير أوضاع اجتماعية لا مفكر فيها، وفي تحقيق مشاريع هجرية مكلفة وغير مضمونة الأرباح. وقد انطلقنا في ذلك من مراجعة الأدبيات السابقة وصولًا إلى عرض النتائج التي توصل إليها العمل حول الهجرة والهوية لدى الذوات المهاجرة في السياقات الإفريقية والمغربية التي تعرف انتقالات هجرية حاسمة، التي تسهم — بدورها، في الوقت الراهن — في هندسة البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجيوسياسية-استراتيجية والثقافية للمجتمعات في عالم اللاتين واللامعنى، فلم يعد القلق من المستقبل فحسب، وإنما من الحاضر الذي لا يطاق كذلك.

4. النتائج ومناقشتها

يدافع هذا العمل عن أهمية البناء السوسيلوجي للمعرفة العلمية حول الهجرة وعلاقتها بالهوية في عالم اليوم، بالاستناد إلى التجارب الهجرية للذوات الإنسانية، بوصفها تجارب اجتماعية تؤثر في تشكيل استراتيجياتها الهوياتية (Camilleri C., 1989; Camilleri C., 1998; Camilleri, et al., 1998)، التي تمكنها من الاستعادة الذاتية لهويتها الشخصية والاجتماعية وإعادة بنائها وفق أسس جديدة تدمج خبراتها الفردية في التكيف مع الشروط الموضوعية للمجتمعات البشرية.

4.1 التجارب الهجرية والاستراتيجيات الهوياتية لدى الذوات المهاجرة

توصل البحث إلى أنّ الهجرة، بوصفها فعلًا اجتماعيًا، لا ينبغي فهمها بوصفها معطى مستقلا عن الخبرات الفردية، وكذلك عن الشروط الموضوعية، بل بوصفها تجربة اجتماعية مشبعة بالدلالات والمعاني الاجتماعية. وفي هذا السياق، تطور الفاعلون في إطارها استراتيجيات تدبيرية وهوياتية تهدف إلى تحقيق رهانات وغايات تتعلق بتدبير أوضاعهم الاجتماعية، والجماعية، والإثنية، والهجرية داخل المجتمعات المضيفة.

ومن الجدير بالذكر أن المهاجرين الأفارقة لا يستخدمون مفهوم الهجرة للتعبير عن تجاربهم، وإنما يفضلون مصطلح المغامرة. فيرون أنّ الأول عاجز عن استيعاب ما يختبرونه من مشاعر الألم، والخوف، والاستغلال خلال مساراتهم. وتشكل هذه التجارب لحظات بيوغرافية فارقة، تؤثر بعمق في مساراتهم الأنطولوجية، وتعيد تشكيل رؤيتهم للعالم الذي يعيشون فيه.

لفت عدد من الباحثين، من بينهم " جفري كوهين وإبراهيم سيركيتشي " (Cohen & Sirkeci, 2016) الانتباه إلى الإشكالات التي تطرحها الهجرة، لاسيما في سياق العالم المعاصر. وقد دعا بعضهم إلى ضرورة إعادة النظر في مفهوم "الهجرة" ذاته، فبالرغم من أن المصطلح يتضمن دائما حركية من دولة إلى أخرى، من خلال اتباع أنماط هجرية معينة (مثل هجرة العمل أو الهجرة الاستيطانية)، فإنّ هذه الأنماط/التصنيفات ترتبط بسياقات تاريخية تعود إلى القرنين التاسع عشر والعشرين.

أما في القرن الحادي والعشرين، الذي يتسم بالسيولة والانفتاح، فإن التغيرات الجذرية في مجالات التنقل، والتكنولوجيا، والثقافة، تعكس تحولات عميقة في أنماط الحركة البشرية. الشيء الذي جعل الأفراد يفكرون بطريقة "طبيعية" خارج حدود الدول القطرية، وفي طريقة عبورها (Urry, 2007). فالهجرة باتت تتخذ أشكالاً جديدة تتماشى مع متطلبات العصر. فعلى سبيل المثال، نجد اليوم أنماطاً هجرية ترتبط بالدراسة، والارتقاء المهني، والزواج، والتقاعد، وحتى باتخاذ التنقل أسلوب حياة... ويعتقد بعض الدارسين أنّ هذه الأشكال الحديثة من الهجرة تحمل دلالات ومعاني خاصة بها، لا يمكن احتواؤها ضمن الإطار النظري للأطروحات الكلاسيكية (Castles, 2016, p. 20) في سوسيولوجيا الهجرات.

وبالرغم من أنّ التكنولوجيا الرقمية تُجسد مظاهر اللامساواة العالمية بين الدول، وتسهم في إعادة إنتاج التقسيم الدولي الكلاسيكي للعمل، كما أنها قد تدفع الأفراد إلى التأمل في تفوق الآخرين بدلاً من التركيز على تطوير ذواتهم والإسهام في نهضة مجتمعاتهم، فإنها في الوقت ذاته تتيح إمكانية الإدراك الاجتماعي للواقع والنخب التي تعيد إنتاجه. كما أنها تحفز الأفراد على التفكير خارج الحدود المحلية والوطنية والإقليمية. إنها تتيح إمكانية التفكير الشبكي في القضايا التي تمس الذات وجماعات الانتماء، تفكير يربط بين الظروف الذاتية والشروط الموضوعية، بين الخصوصي والكوني، ويعيد مجموعة من الوقائع إلى الأصول والسيرورات التي أنتجت اجتماعيا وبطريقة عابرة للأوطان والقارات.

ومع ذلك، فلا تزال سياسات العولمة تعيق تحقيق مفهوم المواطنة الكونية، فتركس انفتاح الحدود أمام تدفق البضائع، والسلع، والأسلحة، بينما تفرض قيوداً مشددة على تنقل الأفراد. ونتيجة لذلك، يُحرم الإنسان من حقه في التعايش العالمي والتنمية الشاملة، ويواجه مساعي تهدف إلى تجريده من إنسانيته عبر تقييد حريته في التنقل على المستوى الدولي. الأمر الذي يجعله يعبئ نفسه في مواجهة هذه السياسات عبر المغامرة، التي قد تكلفه حياته. فانتقائية السياسات الهجرية جعلت الذوات الإنسانية تضحي بنفسها، وتواجه الموت وحدها، إنها الكارثة التي تسهم الأنظمة السياسية في إنتاجها من خلال جعل الهجرة انتقائية والحرمان من الحق في التنمية.

4.1.1 الفعل الهجري لدى المهاجرين الأفارقة بوصفه تجربة اجتماعية

يؤكد المهاجرون الأفارقة أن مغادرتهم لبلدانهم الأصلية ليست فعلاً اعتباطياً أو مجرد خيار شخصي، بل هي نتيجة لتفاعل معقد بين مجموعة من العوامل، تشمل الأبعاد العائلية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والطائفية، والعرقية. وتعكس المسوّغات التي يقدمونها لتجاربهم الهجرية حضوراً مزدوجاً لكلٍ من البعدين؛ الذاتي والموضوعي في آنٍ واحد.

كما يلاحظ وجود ترابط وثيق بين هذه العوامل والأهداف التي يسعى الأفراد إلى تحقيقها من خلال الهجرة. ففي هذا السياق، تصبح الأسباب الدافعة إلى الهجرة ليست مجرد معطيات موضوعية فحسب، بل أيضاً وضعية أنطولوجية وتجارب اجتماعية يتفاعل معها الأفراد من خلال بناء مشروع هجري، والكفاح من أجل تحقيقه، بأشكال فردية أو جماعية، وبالطريقة التي تعكس الانتماءات الاجتماعية والإثنية، والفعالية الفردية، والقدرة الجماعية على تحقيق التغيير الفردي، بعد أن تم فقدان الثقة في المشاريع القطرية الرامية إلى النهضة والتنمية المستدامة والتوضع في المشهد الدولي.

ويستلزم تدبير وضعية اجتماعية هشة في البلد الأصلي، وفقاً لتصور المهاجرين المعاصرين، تحديد أهداف واضحة للهجرة، بوصفها تشكل الإطار الناظم للمشروع الهجري. غير أن تحقيق هذه الأهداف يتطلب الاعتماد على مجموعة من الموارد المتنوعة، خاصة المالية، والمعرفية، والاجتماعية، والاستراتيجية.

وفي هذا السياق، لا يمكن إغفال الدور الذي لعبه الاستعمار وما خلفه من تقسيم دولي للعمل، فضلاً عن السياسات التي انتهجتها النخب السياسية الإفريقية بعد الاستقلال، في تشكيل أنماط الهجرة المعاصرة. فهذه الهجرات ليست مجرد حركات فردية منعزلة، بل هي تعبيرات اجتماعية وجماعية تعكس الواقع السائد، كما تجسد فقدان الأمل في إمكانية تحقيق التغيير الاجتماعي على المستوى الوطني. فعندما يفقد الأفراد الثقة في مستقبل يسمح بتحقيق التغيير المجتمعي المنشود، يتحول اهتمامهم نحو تحقيق هذا التغيير على المستوى الفردي.

علاوة على ذلك، فإن العوامل الدافعة إلى الهجرة ترتبط — بشكل وثيق — بالروابط الاجتماعية، وفق المفهوم الذي طوره سيرج بوغام (Paugam, 2008)، التي تتجسد في روابط القرابة، والمواطنة، والمشاركة الاختيارية، والمشاركة العضوية.

4.1.2 الهجرة وروابط القرابة في المجتمعات الإفريقية

تُعد الأسرة ركيزة أساسية في تشكيل المشروع الهجري لدى الأفراد، فهي تلعب دوراً محورياً في تحديد مساراتهم وفرصهم داخل النسق الاجتماعي. فالهجرة، في هذا السياق، ليست مجرد قرار فردي مستقل، بل هي نتاج شبكة من العلاقات البين-ذاتية والأسرية والالتزامات الاجتماعية العائلية والقرابية، التي تجعل من التنقل الدولي وسيلة لإعادة توزيع الموارد داخل الأسرة، وضمان استدامة التكافل الاجتماعي. وفي المجتمعات

الإفريقية، حيث تُعدّ الأسرة وحدة اقتصادية واجتماعية مركزية، فغالبًا ما يكون قرار الهجرة مدفوعًا برغبة في تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية أكثر من كونه بحثًا عن تحقيق الذات بشكل فردي.

وفي هذا الصدد، يعبر أحد المشاركين في الدراسة عن العلاقة الوثيقة بين وضعية أسرته وقراره الهجري قائلاً: "لم يكن قرار الهجرة مجرد رغبة شخصية، بل شعرت بأنه واجب عليّ. لم أستطع تحمّل رؤية أسرتي تعاني في بلدي دون أن أفعل شيئاً. لقد كان حوض هذه المغامرة ضرورة، ليس فقط من أجل مستقبلتي، ولكن لضمان حياة أفضل لأسرتي أيضاً" (1، 2018).

تعكس هذه الشهادة تصورًا سائدًا لدى عديد من المهاجرين الأفارقة، فلا تُفهم الهجرة بوصفها فعلاً فردياً معزولاً، بل جزءاً من استراتيجية جماعية، تتجاوز البُعد الشخصي إلى أفقٍ أوسع يشمل الأسرة بأكملها. ويشير هذا الأمر إلى أن قرار الهجرة في السياق الإفريقي لا يتوقف عند حدود الرغبة الفردية في تحسين الظروف الاقتصادية، بل يرتبط برابط القرابة، الذي يمنح للفعل الهجري شرعيته الاجتماعية، ويجعله نوعاً من "الالتزام الأسري" الذي يحمل في طياته بُعداً أخلاقياً واقتصادياً في آنٍ واحد.

إنّ هذا التفاعل بين الهجرة والأسرة يُظهر كيف أن المشاريع الهجرية ليست مجرد استجابات لميول وأهواء ذاتية أو لحوافز اقتصادية موضوعية فحسب، بل هي — أيضاً — مشاريع اجتماعية موجهة بالتوقعات الأسرية وبطبيعة العلاقات الاجتماعية. ووفقاً لسيرج بوجام (Paugam, 2008)، فيمكن فهم هذه الديناميات من خلال شبكة الروابط الاجتماعية التي تحدد موقع الفرد داخل مجتمعه، مثل روابط القرابة، والمواطنة، والمشاركة الاختيارية، والمشاركة العضوية. ففي عديد من الحالات، تصبح الهجرة حللاً جماعياً لمشاكل الفقر والهشاشة، ويُنظر إلى المهاجر ليس — فقط — مستفيداً وحيداً من تجربة التنقل، بل فاعلاً اجتماعياً مسؤولاً عن إعادة توزيع الفرص والمكاسب داخل أسرته ومجتمعه.

وبذلك يمكن القول: إنّ الهجرة في المجتمعات الإفريقية لا ترتبط — فقط — بحلم فردي في تحقيق حياة أفضل، وإنما تُعدّ امتداداً لاقتصاد التكافل الأسري، لتصبح الموارد المادية والمعنوية للمهاجر جزءاً من استراتيجيات الأسرة الكبرى للصدوم في مواجهة التحديات الاقتصادية والاجتماعية. وهذا ما يفسر استمرار الحركية الدولية للأفراد، بالرغم مما تحمله من مخاطر، بوصفها أفقاً وحيلاً لتحقيق الأمن الاقتصادي والاجتماعي للأسرة، في ظل انسداد الأفق التنموية في عديد من الدول الإفريقية. إنها نوع من النضال والمقاومة ضد الظروف القائمة، والتزام اجتماعي ينبغي على الفاعل الالتزام به وأداؤه، وفي ذلك تحقيق لذاته ولطموحات جماعات الانتماء في سياقات الانتقال الهجري.

ويتبنى المهاجر الإفريقي مفهوم "المغامرة" بوصفها وسيلة لتدبير وضعه الاجتماعي الهش، ولتعزيز الروابط القرابية التي تمثل عنصراً محورياً في بناء هويته الاجتماعية. فالهجرة في هذه الحالة، لا تقتصر على الأبعاد الاقتصادية فحسب، بل تشمل — أيضاً — رهانات اجتماعية ذات أبعاد ثقافية وعاطفية. فمن خلالها، يسعى الفاعل الاجتماعي إلى إعادة بناء الهوية الاجتماعية التي يسندها إليه المجتمع الأصلي، ليتم تصنيفه عاجزاً عن تحقيق النماذج المثالية للنجاح الاقتصادي-الاجتماعي داخل سياق اجتماعي ضيق، لا يوفر له فرصاً ملائمة للتطور الشخصي واستكشاف عظمة الذات الإنسانية. فبذلك، تُصبح الهجرة وسيلة للهروب من الهوية الاجتماعية المقررة سلفاً، ومحاولة لإعادة بناء هوية جديدة أكثر توافقاً مع طموحاته ومعتقداته ورهاناته.

يُضاف إلى ذلك أن الهجرة بالنسبة للمهاجر الإفريقي تُعدّ فرصة حقيقية لتحسين استقلاليته الاجتماعية، وتحقيق الذات من خلال الوفاء بالتزاماته الأسرية، في مجتمع يعتمد تقسيمياً جنسياً صارماً للعمل، ويسعى إلى تكريس الهيمنة الذكورية والدونية الأنثوية لرهانات تتمثل في تحقيق التماسك الاجتماعي. لذلك، تُعدّ الهجرة بالنسبة له أكثر من مجرد عملية انتقال جغرافي، بل هي فعل اجتماعي ينطوي على سعي حثيث لتغيير موازين القوى داخل النسق الاجتماعي الذي نشأ فيه. إنها محاولة لانتزاع الاعتراف الاجتماعي بوصفه ذاتاً فاعلة، قادرة على مجابهة الشروط الموضوعية القهرية من خلال مراكمة خبرة ذاتية في الهجرة الإنسانية.

ومع ذلك، تظل الأسرة، بوصفها مؤسسة اجتماعية رئيسية، تؤدي وظائف حيوية في تأمين البقاء الاجتماعي لأفراد المجتمع وأدوارهم فيه، خاصة من حيث تقديم الحماية والاعتراف (Paugam, 2008). فبالرغم من سعي الأسرة لتقديم الدعم العاطفي والمادي لأفرادها، فإنّ هذه المؤسسة قد تتحول إلى عائق أمام الفاعلين الاجتماعيين، عندما تسعى إلى فرض قيود اجتماعية على اختياراتهم الفردية. وغالبًا ما تكون هذه القيود مستمدة من تماثلها الثقافية والاجتماعية حول الهجرة السرية، والتي تستند إلى الواقع الفعلي للمهاجرين السريين وما يواجهونه من مخاطر. فالأسرة، التي غالبًا ما تكون حريصة على حماية أفرادها، تتأثر بالصور السلبية المرتبطة بـ "الهجرة غير القانونية"، بدءاً من التنقل عبر المسارات المحظورة سياسياً، ووصولاً إلى المخاطر الجسدية المترتبة على تلك الرحلات الخطرة، ما يعزز ترددها في دعم قرارات الهجرة التي قد تهدد سلامة أفرادها.

في هذا السياق، يوضح أحد المشاركين في الدراسة قائلاً: "في البداية لم أصرح لوالدي بأنني أخطئ للهجرة. وقد أخبرتهما بذلك بعد أن غادرت بلادي الأصلي. لذلك، فالآن وافقاً؛ لأنه ليس لديهما أي خيار آخر" (11، 2018). تُبين هذه الشهادة الصراع الداخلي الذي يعيشه الفرد بين رغبته في تحقيق أهدافه الشخصية عبر الهجرة، وبين الضغط الاجتماعي والنفسي الذي يمارسه المحيط الأسري. في بداية الأمر، يرفض الوالدان فكرة

الهجرة نظرًا لما تحمله من مخاطر، وللمثلثات السلبية المرتبطة بها. ومع مرور الوقت، وعندما تدرك الأسرة عجزها عن التأثير في القرار، تبدأ في قبول واقع الهجرة بوصفه الخيار المثالي لتدبير الأوضاع الأنطولوجية. من هنا، يمكننا استنتاج أن الهجرة، في السياق الإفريقي المعاصر، تتجاوز كونها مجرد رد فعل اقتصادي على الظروف المعيشية القاسية، لتصبح وسيلة لإعادة بناء هوية الفرد الاجتماعية وتحقيق طموحاته الشخصية والمهنية، في إطار مغامرة محفوفة بالمخاطر، تكسر القيود التي فرضها المجتمع على مكانته وهويته، وكذلك القيود التي وضعتها الدول في سبيل منعه من بناء مواطنة عابرة للأوطان.

يستعين المهاجرون بمجموعة من الاستراتيجيات الهوياتية بهدف تحقيق الذات والتوافق مع القيم الاجتماعية للأسرة، ومنها: إخفاء نية الهجرة عن الأسرة حتى يتم الانتقال إلى الفعل الهجري، أو تقديم مسوغات بديلة لتترك البلد الأصلي غير متعلقة بالهجرة إلى الخارج. ويجب التأكيد - هنا - على أن التجربة الهجرية قد تسهم في هشاشة الروابط الاجتماعية للفرد، خاصة تلك المتعلقة بالأسرة، وذلك بسبب التكاليف المرتبطة بها. أحياناً، فتعجز الأسرة عن توفير الحماية لأفرادها بعد الهجرة، وهو ما يظهر في شهادة أحد المشاركين الذي قال: " بعد المغامرة، ليس هناك أحد يقدرني أو يقدرني، أتصل بهم ولا يقبلون اتصالاتي. لأنهم يعرفون بشكل مسبق أن المسألة تتعلق بالمال وطلب المساعدة" (13، 2018). وبناءً على هذه المعطيات، يمكننا أن نستنتج أن التجارب الهجرية في العصر الحالي تؤثر بشكل ملموس في الروابط الاجتماعية في المجتمعات، ما يعكس هشاشة الروابط القرابية والاجتماعية، وعجز المؤسسات الاجتماعية عن أداء وظائفها التقليدية، مثل الحماية المستدامة. ففي ظل هذه التحولات البنيوية، يتعين على المهاجرين بناء استراتيجيات شخصية لإدارة أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية، ما يؤدي إلى تعزيز الفردانية على حساب الجماعية.

4.1.3 تجربة الهجرة ورابط المواطنة في المجتمعات الإفريقية

استنادًا إلى شهادات المشاركين في الدراسة، تبين أنه توجد - من بين العوامل التي دفعتهم إلى الهجرة - عوامل ذات طابع سياسي، تتمثل في غياب حقوق الإنسان والديمقراطية في بلدانهم الأصلية. إلى جانب الحروب الأهلية والصراعات الطائفية والسياسية، خاصة في المناطق التي تسيطر فيها الجماعات المتمردة، مثل "جماعة بوكو حرام". وفيما يلي إحدى الشهادات التي تم التوقف عندها في البحث الميداني: "في بلدنا ليس لدينا أي شيء. ليس لدينا العمل، وليس لدينا حقوق الإنسان. لذلك، تركناه. نحن في الكاميرون لدينا عائلات تعاني، إضافة إلى مجموعة من المشاكل الأخرى مثل الحروب والصراعات التي تتعلق بالجماعات المتمردة، مثل بوكو-حرام" (1، 2018).

يعتمد المهاجر الإفريقي على تجاربه الاجتماعية في تشكيل مجموعة من التمثلات الاجتماعية حول الواقع السياسي والحقوق للبلدان الأصلية. وهي تمثيلات يمكن اختزالها في انتشار الصراعات والحروب الأهلية وغياب حقوق الإنسان، نظرًا للاستبداد السياسي، وغياب الإرادة السياسية للاعتراف بحقوق الجماعات الإنسانية. وهي تمثيلات تبنى من خلال فعل المقارنة الذي يقوم به الفرد بين الواقع الحقوقي لبلده من جهة، والواقع الحقوقي للبلدان الأوروبية من جهة أخرى. وعلى أساس هذه المقارنات، يحدد المهاجر البلدان المستهدفة من خلال فعله الهجري.

في المقابل، أصّر المهاجرون على العودة إلى بلدانهم الأصلية فور تحقيق أهدافهم من الهجرة. ويُفهم هذا الموقف في إطار بعدين أساسيين: الأول هو حيثيات الانتقال إلى الفعل الهجري، بينما الثاني يتعلق بالهوية الاجتماعية المشتركة. فبالرغم من أن المهاجرين لا يغادرون بلدانهم بناءً على دوافع هوياتية محضّة، فإنهم يتخذون هذا القرار استنادًا إلى مجموعة من الأسباب البنيوية المركبة، إلى جانب اختيارات ذاتية وأوضاع اقتصادية واجتماعية هشة.

في هذا المنحى، يسعى المهاجر إلى تحقيق مجموعة من الأهداف ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي. غير أن مغادرتهم لبلاده لا تعني - بالضرورة - التخلي عن هويته الاجتماعية وعلاقاته الاجتماعية، بل يظل محافظاً عليها ومتشبّهًا بها، مستخدمًا مجموعة من الاستراتيجيات الهوياتية التي تمكنه من الاندماج في نسق مجتمع الاستقبال من جهة، والحفاظ على هويته الأصلية من جهة أخرى. وقد عبّر أحدهم عن ذلك بالقول: "سأعود إلى بلادي، فنحن نهاجر من أجل تحقيق أهدافنا وتحسين حياتنا وتغيير أوضاع أسرنا. أما مسألة الهجرة من دون عودة فلا نفكر بها بتاتا، لأننا في النهاية أفارقة، وأوروبا ليست لنا." (8، 2018).

بالرغم من غياب الاعتراف في البلاد الأصلية، يظل المهاجرون مرتبطين بها بوصفها جماعة انتماء، إلى جانب جماعات أخرى مثل الأسرة وجماعة الأصدقاء. وهذا يعكس حقيقة مفادها أن الشعور بالانتماء إلى البلاد الأصلية هو بناء اجتماعي، الذي يبنيه الفرد من خلال خضوعه لسيرورات اجتماعية متعددة مثل التنشئة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي. ولا يعني هذا أن الفرد مجرد موضوع سلبي خاضع لتأثير المجتمع فقط، بل إنه يسهم - بدوره - في طبع المجتمع، بالطريقة التي يسلكها في اتخاذ قراراته، استمدت طابعها الاجتماعي من علاقاته بالغير عبر سيرورة اجتماعية وترويض طبيعته (الباس، 2014). وهذا الترويض لا يقتصر على مسألة اتخاذ

القرارات فحسب، وإنما يمتد إلى مختلف الطرق التي يعتمد عليها الفاعل في التفكير والشعور والفعل والتفاعل. ومن خلالها تبنى هويته الاجتماعية، التي تبقى قابلة لإعادة البناء تبعاً لتجاربه الاجتماعية وأوضاعه المعيشية ولحظاته البيوغرافية الفارقة.

إذا كان الفاعلون يتكبدون معاناة جراء عدم اعتراف الجماعات التي يشعرون بالانتماء إليها، بهم، فإنهم يعانون - كذلك - من انعدام شعورهم بالانتماء إلى البلدان التي يتواجدون فيها، ويتعلق الأمر بالبلدان التي يبرون بها من قبيل الجزائر وليبيا والمغرب. ذلك أن الثقافة والإثنية والقومية تلعب أدواراً جوهرية في بلورة الفاعلين لمجموعة من الاستراتيجيات، بقصد الحفاظ على الهوية الاجتماعية المشتركة. كما أن الوضعيات الاجتماعية البين-ذاتية والبين-جماعية المعيشة تعزز هذا الشعور بالانتماء إلى الجماعة الأصلية "النحن"، وتبرز الجماعات الأخرى المختلفة عنهم، والتي تمثل "الهم".

من هذا المنطلق، نلاحظ أن تجربة الهجرة والوضعية الاجتماعية الهشة التي يعيشها المهاجر، تؤثر بشكل كبير في بناء رابط المواطنة لديه. فالمهاجر يعيد بناء هويته الاجتماعية بوصفه مهاجرًا إفريقيًا، مختلفًا عن المهاجر القانوني وعن المواطن المغربي. ويطور في هذا السياق مجموعة من الاستراتيجيات الهوياتية التي تهدف إلى تحقيق نوع من التماسك بين الرهان البراغماتي (أي تحقيق المشروع الهجري) والرهان الأنطولوجي (أي التثبيت بالهوية الأصلية). كما أن أوضاعهم في المجتمع المغربي تعكس معاناة متواصلة من الغياب المزدوج (Sayad, 1999). في هذا السياق، يُعدّ المهاجر غريبًا في البلد الذي يعيش فيه الآن، وهنا لأنه لا يشعر بالانتماء إليه، وفي الوقت ذاته يُعدّ مهاجرًا في بلده الأصلي، الذي لم يعترف به ودفعه دفعًا إلى المغامرة والتضحية بالذات وإرثها المادي والرمزي. هذه المغامرة التي تحمل في طياتها الألم والمعاناة والاستغلال، وتخلف مشاعر الخزي والعار والدونية الاجتماعية، في سياقات اجتماعية لا توفر لهم الظروف المناسبة لتحقيق مشاريعهم الهجرية، ولا تساعد في إدماجهم اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا. هذا الوضع المركب لا يؤثر في تقويم الفرد لتجربته الهجرية ولطبيعة المجتمعات والجماعات التي تفاعل معها فحسب، بل إنه يؤثر في رويته للكون، وفي تكوين موقفه من الإنسانية جمعاء.

4.1.4 تجربة الهجرة ورابط المشاركة العضوية في المجتمعات الإفريقية

في خطاب المهاجرين حول حيثيات اتخاذهم للقرارات الهجرية، يظهر بوضوح تأثير غياب فرص العمل في البلدان الأصلية بوصفه عاملاً دافعاً رئيسياً للهجرة. فالمهاجرون يرون أن غياب هذه الفرص في بلادهم يُجبرهم على البحث عن بدائل في الخارج. ولذلك، تُعدّ الهجرة بالنسبة لهم وسيلة استراتيجية ورأسماً يعزز مشاركتهم في المجتمعات المعاصرة. فمن خلال هذا القرار، يسعى الفرد إلى تحقيق نوع من الاستقلالية الاقتصادية والاجتماعية التي تُسهم في تكوين رابط المشاركة العضوية في المجتمعات التي يهاجر إليها.

وقد عبر أحد المهاجرين عن هذه الفكرة بوضوح حين قال: "إذ حصلت على العمل، فإنني سأبقى هنا. أنا لم أختَر أوروبا هكذا موضحة... وإنما بحثت عن فرصة شغل... ولم أعتز عليها" (14، 2018). تعكس هذه الشهادة كيف أن الهجرة بالنسبة للمهاجرين ليست مجرد بحث عن مكان بديل للعيش (حركية مجالية)، بل هي محاولة واقعية للاستفادة من الفرص الاقتصادية التي قد لا تتوفر في البلد الأصلي (حركية اقتصادية-اجتماعية). وبالتالي، تبرز الهجرة أداة لتحقيق التماسك الاجتماعي والاقتصادي، وتسهم في إعادة تشكيل الروابط الاجتماعية الفردية والجماعية، وفقاً للفرص التي تتيحها بيئات الاستقبال.

و غالباً ما يُعدّ غياب فرص العمل في البلد الأصلي، إلى جانب طبيعة العلاقة التي كان يُقيمها المهاجر مع الأعمال والمهن التي كان يمارسها، من العوامل الرئيسية التي تدفعه إلى اتخاذ القرار الهجري. فيؤدي الغياب الفسري للعمل، جنباً إلى جنب مع عدم رضا المهاجر عن نوعية العمل الذي يزاوله، إلى شعوره بعدم الاستقرار الاجتماعي والمادي، ما يجعله يعيش الهشاشة الاقتصادية-اجتماعية (البجدياني، 2024 أ). وتؤثر هذه الوضعية بشكل كبير في علاقته بالمجتمع الأصلي، فيصبح الاندماج فيه أمراً مكلفاً على المستوى الشخصي والعلائقي، وبالتالي تزداد احتمالية اتخاذ القرار الهجري في محاولة منه لتحسين وضعه الاجتماعي والاقتصادي، في عالم يتسم باللابقين، وبهيمنة البعد الاقتصادي في تشكيل المخيال الاجتماعي حول "الناس"، وفي هندسة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الأفراد. إنه عالمنا الذي تراجعت فيه الروابط والعلاقات الاجتماعية، وهيمنت فيه البراغماتية مخيلاً وممارسة.

في هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن الدراسات الكلاسيكية للهجرة كانت تربط بين ظاهرة الهجرة ومشكلة الاندماج الاجتماعي في بلد الاستقبال. إلا أن التجربة الميدانية بينت أن مسألة الاندماج الاجتماعي تطرح بشكل مكثف في البلد الأصلي قبل أن تظهر في بلد الاستقبال. ذلك أن غياب فرص العمل يخلق فجوة اجتماعية ونفسية، فيشعر الفرد بأنه غير قادر على أداء الدور الاجتماعي المنتظر منه، خاصة في مجتمعات غالباً ما تكون مرنكة على معايير اجتماعية متشابهة مع العمل بوصفه مؤشراً للقيمة الاجتماعية، وهو ما يُعزّضه للشعور بالدونية. فالعمل ليس مجرد علاقة أدائية بين العامل وصاحب العمل، بل هو عنصر أساسي في تشكيل الهوية الاجتماعية والرابط الاجتماعي لدى الفرد (Hamzaoui, 2007/2, p. 34).

في هذا السياق، يقول "حمزاوي ماجد" في تفسيره لهذا الوضع: "إن الغياب اللاإرادي للعمل لا يدفع الفرد إلى الفقر الاقتصادي فحسب، بل يتسبب - أيضاً - في العزلة والقلق وفقدان الإحساس بالجدوى، ما يؤدي إلى شعور الفرد بالاعتراف بكرامته." (Hamzaoui, 2007/2, p. 37). من هنا، نلاحظ أن ارتباط مسألة الانتقال إلى الفعل الهجري بما هو عائلي وعملي لا يعني بالضرورة أن الجماعات التي يخرط فيها الفرد بشكل اختياري (كجماعة الأصدقاء مثلاً) لا تلعب أي دور في بناء المشروع الهجري. بل على العكس من ذلك تماماً، تلعب هذه الجماعات دوراً محورياً في تشكيل القرارات الهجرية والانتقال إلى الممارسة، فتعدّ بمنزلة شبكة دعم اجتماعي وأداة تسهيلية لتحقيق الطموحات الفردية والجماعية في سياقات تعرف تعثراً تنموياً واضحاً ولا مساواة بنيوية وانتقالاً هجرياً.

4.1.5 تجربة الهجرة و رابط المشاركة الاختيارية في المجتمعات الإفريقية

تعد جماعات الأقران والأصدقاء من أبرز الجماعات الاختيارية التي تلعب دوراً جوهرياً في تشكيل العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، كما تؤثر في قراراتهم الذاتية المتخذة في حالة من الحرية. وتعكس الشهادة التالية هذا التأثير: "لم أكن أعاني كثيراً في بلدي الأصلي، فالأمر - يقصد الانتقال إلى فعل المغامرة - كان مرتبطاً بأصدقائي الذين شجعوني على ذلك، وأثروا في قراري بالمغامرة معهم" (3، 2018). تأسيساً على ذلك، يتبين أن الهجرة لا ترتبط بأسباب طردية وحسب، وإنما تُعدّ قراراً يتخذه الفاعلون في إطار جماعات اختيارية وشبكات اجتماعية، ولا سيما جماعة الأصدقاء. ذلك أن عضوية فرد معين في جماعة اجتماعية ما تقتضي منه استدعاء قيمها ومعاييرها. وبما أن الجماعات الاختيارية تتكوّن من أعضاء يتقاسمون الوضعية الاجتماعية ذاتها، فإن الاستراتيجيات التي تبلورها لتدبير هذه الوضعية تكون مشتركة. فالمهاجرون، بالرغم من اتخاذهم للقرارات الهجرية في إطار جماعات اجتماعية اختيارية، فإنهم يصفون عليها بعداً فردياً، فيسوّغون انتقالهم إلى الفعل الهجري بمسوّغات ترتبط بذواتهم بالدرجة الأولى. وهذا يبيّن كيف يتداخل البعد الفردي والجمعي في تشكيل الفعل الهجري لدى الذات الإنسانية المعاصرة.

وعليه، فإن الهجرة فعل اجتماعي ونتاج لمجموعة من الأسباب البنوية المركبة، بعضها موضوعي مرتبط بالنسق، وبعضها ذاتي مرتبط بالخبرات الذاتية وتجاربها الأنطولوجية. كما أن الفاعل، في إطار فعله الهجري، يعيش مجموعة من الوضعيات الاجتماعية الخاضعة لنظام اجتماعي رمزي محدد، وهي وضعيات تفاعلية بين-ذاتية وبين-جماعية، يقوم بتدبيرها من خلال مجموعة من الاستراتيجيات الهجرية، بهدف تدبير الحياة اليومية وإنجاح المشروع الهجري (الرهانات البراغماتية)، إلى جانب مجموعة من الاستراتيجيات الهوياتية، قصد التكيف في البيئة الاجتماعية الجديدة مع الحفاظ على الهوية الاجتماعية-الثقافية الأصلية (الرهانات الأنطولوجية). هذا المعيش هو ما يجعل من الهجرة فعلاً اجتماعياً ذا معان اجتماعية، وتجربة اجتماعية بالمعنى السوسيولوجي للمفهوم (Dubet, 1994) تحكمها ثلاث منطقيات:

المنطق الاجتماعي: ذلك أن الفاعلين استدعوا فكرة الهجرة ودمجها انطلاقاً من التنشئة الاجتماعية، وكذلك من التفاعل الاجتماعي بين-ذاتي في البلدان الأصلية، دون أن يعني ذلك انعدام الأسباب والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي قد تدفع الفرد إلى اتخاذ القرار الهجري. كما أن رهانات الفاعلين من وراء الفعل الهجري ليست رهانات فردية وحسب، بل هي - أيضاً - رهانات ترتبط بمجموعة من المؤسسات الاجتماعية (الأسرة، العائلة...)، ما يجعل الهجرة وسيلة لتعزيز الرابط الاجتماعي (Paugam, 2008)، ونفاذي العقاب الرمزي الذي قد يلحق بالفاعل جراء عدم تحقيقه لذاته بوصفه عضواً في مجموعة من المؤسسات الاجتماعية (الجماعة الإثنية، الأسرة...)، فالهجرة اليوم صارت أداة للمقاومة والنضال ضد الظروف القهرية، ونمطاً للعيش في عالم السيولة واللايقين والشعبوية، والتنكر للحقوق الكونية للذوات الإنسانية.

المنطق الاستراتيجي: ذلك أن الفاعل، قبل أن ينطلق في فعله الهجري، يبلور مجموعة من الاستراتيجيات بهدف الانتقال إلى الفعل الهجري، والتي تتمثل في السعي إلى تحصيل الموارد المالية الكافية، وكذلك جمع المعطيات حول المجالات الهجرية، إلى جانب الانخراط في مجموعة من الجماعات الهجرية. كما أنه، في إطار المسار الهجري، يبلور مجموعة من الاستراتيجيات، بعضها لتدبير الحياة اليومية، وبعضها لتدبير الوضعيات الاجتماعية الهجرية الخاضعة لمحددات اجتماعية وإثنية، وبعضها ذات طابع هوياتي لتحقيق التوازن المركب بين الرهانات الأنطولوجية والبراغماتية (Camilleri, et al., 1998)، وبعضها ذات طابع هجري غائي يرتبط بالسعي إلى تحقيق المشروع الهجري وإنجاحه. فالهجرة تمكن الذات الإنسانية من توليد استراتيجيات في أية لحظة وفي أي مكان، ومن بناء رؤية استراتيجية حول العالم ومعيش الذات في المستقبل، رؤية تأخذ بعين الاعتبار الاعتبارات كافة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية-الثقافية العابرة للأوطان.

المنطق الذاتي: بالرغم من اعتراف الفاعلين بوجود أسباب دفعتهم إلى الهجرة، فإنهم يصفون عليها بعداً ذاتياً، مادام أنهم يربطون بين مشاريعهم الهجرية ومشاريعهم الحياتية. كما تظهر هذه الذاتية في رهانات الفاعلين من الهجرة، وكذا في استراتيجياتهم الهوياتية بقصد تحقيق التكيف الاجتماعي في المجتمعات المضيفة. وهذا معناه: إنّ الهجرة -بوصفها مشروعاً شخصياً، وفعلاً اجتماعياً، وتجربة سيكوسوسيولوجية- تمثل لحظة فارقة في المسار

البيوغرافي للمهاجر-الفاعل، تسهم في إبراز فاعلية الذات الإنسانية، وقدرتها على الفعل بشكل واع، مع الصراع من أجل التوضع في الفضاء الأنطولوجي الكوني. وفي هذا، تحاول جاهدةً تجاوز الشروط الموضوعية التي تحاول الحد من حريتها وفعاليتها البشرية.

4.2 من التجارب الهجرية إلى الاستراتيجيات الهويةية في سياقات العبور

تُعدّ التجارب الهجرية لدى المهاجرين الأفارقة مسارات اجتماعية ولحظات بيوغرافية فارقة تتخللها مشاعر الألم والمعاناة، ومحفوفة بمجموعة من المخاطر. فيركزون في سرد مساراتهم الهجرية على أهم المعاناة التي واجهوها، سواء الناتجة عن طبيعة علاقاتهم مع الغير أو تلك الناتجة عن مواجهة صعوبات في تدبير الحياة اليومية، وتحقيق المشروع الهجري، والتكيف السيكوسوسيولوجي في بلدان العبور.

في إطار سرده لتجربته الهجرية، يقول أحد المشاركين (7، 2018): "خرجت خلال شهر أكتوبر، دخلت إلى مالي، منه إلى "بامكو"، ثم "سيفاري"، ثم "غاو" (...). بخصوص المعاناة التي واجهناها في طريقنا، كانت في "غاو"، حيث تم اصطيادنا من قبل الطوارق وعذبونا. ففي البدء، كانوا يعذبوننا لكي ندفع لهم 1000 أورو، وهم سيلتزمون بإيصالنا إلى الجزائر، وإذا بهم يقومون باقتيادنا إلى محازمهم السرية، وهنا عذبونا وقاموا بسلبنا كل ما نملك، بل وفرضوا علينا الاتصال بأسرنا وعائلاتنا لكي نتقذنا، إنهم يتخذوننا رهائن... ما رأيناه مؤلماً وصعباً وقاسياً ونحن في إطار مغامرتنا. لكن نحن المهاجرون مؤمنون بفكرة هي: ينبغي إنجاح المغامرة. لأنه إذا عدنا إلى أبائنا فهي مأساة أخرى، فنحن تركنا آبائنا وأمهاتنا والعديد من الأشياء، واختبرنا حظنا من أجل إنقاذ عائلاتنا وضمان مستقبلنا."

يشعر المهاجرون الأفارقة بالدونية الاجتماعية جراء اتخاذ المتمرد لهم، بوصفهم رأسمال لكسب المال والمتاجرة فيهم باستخدام أساليب عنيفة وغير إنسانية. أبرز هذه الأساليب نذكر: الحجز، والتعذيب اليومي، والتشغيل الشاق، والتهديد بالقتل والتصفية الجماعية... ويواجهون على طول مساراتهم الهجرية أربع جماعات اجتماعية على الأقل: الأولى هي جماعة الطوارق، والثانية هي جماعات التهجير، والثالثة هي جماعة المنحرفين والمجرمين، والرابعة هي جماعة حراس الحدود والشرطة. وتختلف رهانات هذه الجماعات حسب المشاركين في البحث باختلاف الأطر المرجعية المؤطرة لأنشطتها وشخصيات أعضائها.

يُؤول المهاجرون معيشتهم في إطار علاقاتهم مع هذه الجماعات معيش معاناة وألم مستمرين، خاصة في ظل عدم وفاء مجموعة من المهاجرين بالتزاماتهم الاجتماعية تجاه الجماعة الإثنية التي ينتمون إليها، وذلك نظراً لتعاونهم مع جماعات اجتماعية تتخذ من المهاجرين رهائن ومواضيع للاستغلال، ما يؤثر في طبيعة مواقعهم الاجتماعية وطبيعة الخيارات والاستراتيجيات المعتمدة، وكذا في عملية إعادة بناء مواقعهم وتمثلاتهم الاجتماعيتين بخصوص ذواتهم في مرحلة أولى، وبخصوص الغير في مرحلة ثانية.

إن احتجاز المجموعات المنحرفة والمتطرفة للمهاجرين، يؤثر في مساراتهم الهجرية، خاصة أنه غير متوقع، ما يفرض عليهم اعتماد استراتيجيات جديدة لتدبير المعيش الهجري، أبرزها قبول العمل الشاق. قائلين في هذا الصدد: "نحن نقبل بأي عمل كلما كان، لأننا في حاجة ماسة إلى المال من أجل إكمال الطريق نحو المغرب. لا تفرض علينا ممارسة مثل هذه الأعمال، ولكن نضطر لمزاوتها. نحن السود نقبل بمزاوتها شريطة أن يقوموا بصرف مستحقاتنا، لأن الله يتعاون معنا" (11، 2018).

يعدّ العمل في إطار المغامرة وسيلة لا غنى عنها لتدبير الحياة اليومية وحفظ البقاء، خاصة فيما يتعلق بتلبية الحاجيات البيولوجية الذاتية. وفي هذا الإطار، يكتسب المهاجر هوية اجتماعية، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة العلاقة التي تربطه بالعمل ومدى رضاه عنه. ففي الغالب، يكون العمل المسند إلى المهاجر شاقاً، ما يجعله في وضعية هشاشة اجتماعية واقتصادية. وهنا لا بدّ من التأكيد على أن "الأعمال الشاقة" التي تُسند إلى المهاجرين الأفارقة لا تُسند إليهم بناءً على أوضاعهم القانونية، وإنما بوصفهم أعضاء في جماعات اجتماعية إثنية، تسود بشأنها تمثلات اجتماعية وأحكام عرقية مسبقة تختزل أعضاء جماعة "السود" في كونهم "عبيداً".

وبالرغم من وعي المشاركين بذلك، فإنهم ينظرون إلى تلك الأعمال بوصفها "فرصاً" لإنجاح مشاريعهم الهجرية. وهذا يعكس جوهر الاستراتيجيات الهويةية التي يلجأ إليها المهاجر في إطار تدبيره لمجموعة من الوضعيات الهجرية غير المتوقعة، فيدمج الهوية السلبية لرهانات براغماتية، ويحافظ في الوقت نفسه على هويته الأصلية الإيجابية لرهانات أنطولوجية.

وإلى جانب التحديات المرتبطة بالعمل، يواجه المهاجرون صعوبات كبيرة في التفاعل الاجتماعي مع الفاعلين الآخرين في المجتمعات المضيفة (المجتمع المغربي نموذجاً)، وذلك جراء أوضاعهم القانونية والإدارية والاجتماعية، إلى جانب انتمائهم الإثني ولغتهم ولون بشرتهم. ويتعلق الأمر بنظرة الآخر إلى المهاجرين المكافئين، والتي تختزلهم في صور نمطية مثل "مجرمين"، و"منحرفين" أو "عبيد"، فضلاً عن مجموعة من السلوكيات الصادرة عن الفاعل الأمني، والتي تعكس وجود نظرة سلبية تجاه "السود" و"الأفارقة".

وقد عبّر بعضهم عن ذلك بالقول: "بعض المغاربة يتخوفون منا. ففي بعض الأحيان، نلتقي الأطفال فيهربون منا، وكذلك النساء. في حين أن إنسان إفريقيا السوداء يرمز للكرامة، قسماً. فيحدث أن تقصد أحداً

لاستفساره عن مكان ما، فلا يستطيع أن يرد لأنه خائف، فيجهد وضعيتنا وحقيقتنا... عشنا لحظات غير متخيلة، وما زلنا هنا نعيش المعاناة نفسها، فدائمًا ما يقومون بترحيلنا ويتعاملون معنا بوصفنا مجرمين أو منحرفين، بالرغم من أننا لم نفعل أي شيء، وهذا ليس منطقيًا بتاتًا. إنهم يحكمون علينا بناءً على وضعيتنا، ونحن ضحايا الفقر (...). في الحقيقة، المغرب بلد جيد، ولكن لا يمكنني -في كل الأحوال- أن أفكر في الإقامة هنا، لأنه من المؤكد ألا يتم تقديرنا مهما فعلنا، لذلك ينبغي أن نغادره" (4، 2018).

ينظر المهاجر إلى نفسه نظرةً إيجابية، ولعلّ هذه النظرة إلى الذات هي ما تقاسمه كل الذوات الإنسانية، كما سبق أن أكد على ذلك "تاجفل" و"تيرنر" (Autin, 2010). غير أنهم يواجهون، في إطار عملية التفاعل بين-ذاتي والبين-جماعي، مجموعةً من الوقائع التي تختزلهم في كونهم فئة اجتماعية دونية وأقلية مقارنةً بالجماعة المهيمنة. وتكرّس هذه الدونية، وما يرافقها من انعدام التقدير الاجتماعي، عن طريق تقديم مبررات بيولوجية وإنتاج أحكام عرقية قبلية مبنية على العنصرية (le racisme) والإقصاء الاجتماعي. وتظهر هذه الأحكام جليًا في تمثيلاتهم الاجتماعية حول "المغاربة"، والتي تُبنى على أساس ردود أفعالهم ومواقفهم واتجاهاتهم تجاه جماعتهم وإثنياتهم ووضعيتهم الاجتماعية ومشاريحهم الهجرية. ولعلّ هذه المواقف والاتجاهات هي ما تسميه سوسيولوجيا العلاقات بين-إثنية بـ"المؤشرات الدالة على العنصرية" (Véronique, 1991, p. 82).

وتأسيسًا على ذلك، يتضح أن العلاقات الاجتماعية بين المهاجرين والمغاربة، أو بين الأقلية والجماعة المهيمنة، مبنية على متغيرات ترتبط بالإثنية والقومية والتراتبية الاجتماعية. ومن خلال الوضعيات الاجتماعية المعيشة، يعيد المهاجر بناء هويته الاجتماعية، على اعتداد أن هذه الأخيرة ليست معطى موضوعيًا أو مجرد انتماء إلى جماعة معينة، بقدر ما هي بناء اجتماعي يسهم فيه مختلف الفاعلين، وذلك في إطار مجموعة من الوضعيات الاجتماعية التفاعلية التي تشكل التجارب الهجرية (Potot, 2001, p. 1). وفي سياق هذه العملية (إعادة بناء الهوية)، يبلور المهاجر مجموعةً من الاستراتيجيات الهوياتية، سعياً لتحقيق توازن مركّب بين رهاناته البراغمية (تحقيق المشروع الهجري) من جهة، ورهاناته الأنطولوجية (التكيف الاجتماعي في المجتمعات المضيفة، الحفاظ على الهوية الإيجابية، وتقدير الذات) من جهة أخرى.

5. الخاتمة

ختامًا، يمكن القول: إن المسارات البيوجغرافية الهجرية للفاعلين والمعاني الاجتماعية الممنوحة لها، إلى جانب المنعطفات التي تتخللها، تجعل من تجربة الهجرة تجربة اجتماعية بالمعنى السوسيولوجي للمفهوم. هذه التجربة محكومة بمنطق اجتماعي واستراتيجي وذاتي، فتؤثر في المواقع الاجتماعية للمهاجرين وتدفعهم إلى بناء مجموعة من الاستراتيجيات الهوياتية بهدف تحقيق التكيف النفسي والاجتماعي في مجتمعات العبور، فضلاً عن السعي لإنجاح مشاريعهم الهجرية.

إن العلاقة بين الهجرة والهوية هي علاقة دياكتيكية ومعقدة، فيطرح سؤال الهوية والانتماء بشكل حاد في المجتمعات التي تعرف ديناميات وانتقالات هجرية. ومن الصعب فهم هذه العلاقة واستقراؤها من خلال الانحياز إلى براديجم واحد. ومع ذلك، فإن البراديجمات الحديثة مثل براديجم الفاعل الاجتماعي، والاستراتيجيات الهوياتية، والتجربة الاجتماعية، تفتح آفاقًا جديدة لفهم الذوات المهاجرة وتجاربها الهجرية واستراتيجياتها الهوياتية في سياق علاقاتها الاجتماعية بين-جماعية والبين-إثنية مع الجماعات المهيمنة في المجتمعات المضيفة. وعلى هذا الأساس، يمكن القول: إن المجتمع المغربي، في الوقت المعاصر، أصبح أمام مجموعة من التحديات المرتبطة بتوافد الجماعات المهاجرة بإثنيات مختلفة. ما يفرض على الفاعل السياسي المغربي بلورة سياسات للاعتراف والضيافة من أجل إدماج هذه الجماعات والأقليات المهاجرة. إذ نرى بأن تحقيق أمل بناء مجتمع المواطنين ودولة الحق والقانون يبقى رهينًا إلى حد بعيد بطبيعة الاستراتيجيات والسياسات المعتمدة لإدماج كل الفئات الاجتماعية في المجتمع المغربي، بغض النظر عن الأصل الوطني، أو الانتماء الإثني، أو اللون، أو اللغة، أو الوضع القانوني.

6. في دليل المقابلات شبه الموجهة المعتمد وقائمة المساهمين في البناء الإمبريقي لموضوع البحث:

6.1 دليل المقابلات شبه الموجهة المعتمد¹

Profil de l'enquêté :

- Sexe :
- Âge :
- Etat matrimonial :
- Pays d'origine :
- Religion / croyances religieuses :
- Niveau Scolaire :

Premier axe : carrière migratoire

Facteurs déclencheurs de l'acte migratoire :

- pouvez-vous me décrire Comment vous avez pris la décision d'émigrer ?

-Pourquoi vous avez quitté votre pays d'origine ? Et quand ?

-Choisissez-vous le Maroc comme un pays de destination ?

Si oui, Quelles sont les causes de ce choix ?

-Est-ce que vous considérez le Maroc comme pays d'installation définitive ?

-Si vous ne considérez pas le Maroc comme pays d'installation, quelles sont vos stratégies pour traverser le Maroc ?

Stratégies migratoires

-Quelles sont les ressources mobilisées par vous pour émigrer au Maroc ?

- vous avez émigré Avec Qui ?

-Pouvez- vous me raconter votre parcours migratoire, dès le pays d'origine jusqu'à l'arrivé au Maroc ? (Comment vous avez fait pour rentrer au Maroc ? et quand ?)

-Avant d'arriver au Maroc, Quels sont les problèmes et les difficultés rencontrées durant votre trajet migratoire ?

-comment vous êtes arrivé à franchir les frontières des Etats parcourus ?

-Pouvez-vous me raconter votre expérience vécue dans les différents états Parcourus ?

-Comment vous sentez dans votre trajet Migratoire ?

-après votre arrivé au Maroc, quelle a été la première ville marocaine de destination ?

- Pouvez-vous me raconter votre expérience vécue dans les différentes villes marocaines que vous avez fréquentées ?

Comment vous sentez ici au Maroc ?

Avez- vous d'autres expériences migratoires ?

Si oui, pouvez-vous e raconter comment ça s'est passé (conditions d'habitat, relations nouées, événements majeurs, vécu quotidien...)?

Deuxième axe : conditions de vie et/ou situation vécue :

Situation juridique :

- avez-vous réglez votre situation légale ?

-avez-vous confrontez à des obstacles d'accès aux services sociaux à cause de votre situation juridique ?

Conditions d'habitat

• Avez-vous un logement ?

Actuellement, habitez-vous OÙ ?

• Comment vous avez fait pour trouver un logement ?

• Avec qui vous habitez ?

• Etes-vous satisfait de votre logement actuel ?

Moyens quotidiens de survie

• Comment gérez-vous votre vie quotidienne ?

• Comment faites-vous pour avoir de la nourriture ?

• Quelle est votre source de revenu ?

Rapport au travail

• Avez-vous un travail ?

Si oui :

✓ Comment vous avez trouvez ce travail ?

✓ Etes-vous satisfait de votre travail ?

✓ Sentez-vous à l'aise dans votre travail ?

✓ Sentez-vous qu'il y a une égalité professionnelle par rapport à vos collègues au sein du milieu professionnel ?

Si non :

✓ Avez-vous déjà cherché un travail ?

✓ Comment expliquez-vous le non obtention d'un travail ?

¹ تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الدليل هو الذي اعتمد في إجراء المقابلات شبه الموجهة مع المشاركين في الميدان الهجري (البجديني، 2019). ومع ذلك، فإن المقال الذي بين يديك لا يقدم تحليلاً علمياً ومناقشة سوسيولوجية لكل النتائج التي تم التوصل إليها، وإنما يركز فقط على تلك التي تخدم رهانات هذه الورقة. لذلك، يُقترح مراجعة الأبحاث والمقالات التالية (البجديني، 2019؛ البجديني، 2021؛ البجديني، 2024 أ) التي تندرج في سياق المشروع البحثي نفسه حول سوسيو-أنثروبولوجيا الهجرة والثقافة والتغير الاجتماعي بالمغرب.

- Vous avez « fait le feu »² maintenant, est ce que vous êtes alise comme ça ?
- Pouvez-vous me décrire écrire les conditions et les circonstances dans lesquelles déroulent cette pratique ?
- Est-ce que vous avez confronté à des gens qui jugent votre situation ?
- Comment vous voyez les réactions des Marocains lorsque vous faites de la mendicité ?
- Lorsque vous faite le feu Comment vous sentez ?

Troisième axe : la reconstruction de l'identité sociale

Les liens sociaux

Relations familiales (le lien familial) :

- Est-ce que votre famille a accepté votre décision migratoire ?
- Est-ce que vous êtes en contact avec votre famille ?
 - Est-ce qu'il y a un changement de rapport familial après la migration ?

Lien de citoyenneté

- voulez-vous retourner un jour à votre pays ?
- Considérez-vous comme un marocain ?

Liens religieux :

- Quelle est votre Religion d'origine ?
- Pratiquez-vous vos cultes religieux librement au Maroc sans aucun mépris et racisme ?

- Comment pratiquez-vous vos cultes religieux ?

Relations avec la société marocaine d'accueil et le degré d'acceptation sociale³ :

- Comment vous voyez les Marocaines ?
- Comment les marocains vous perçoivent ?
- Est-ce que vous trouvez des difficultés de communication avec les marocains ?
- Comment vous sentez au Maroc ? (Vous êtes accepté ou rejeté par les marocains ?)
- Avez-vous noué des relations amicales avec des Marocains ?

Si Non, pourquoi vous n'avez pas des relations avec marocaines ?

Le sentiment d'appartenance

Pouvez-vous me décrire les groupes que vous sentez appartenir ?

Tenant compte la situation actuelle que vous vivez au Maroc, Avez-vous des sentiments d'appartenance à la société marocaine ?

Expérience de racisme et la discrimination raciale

- Sentez-vous qu'il y a un racisme ethnique ou une discrimination contre vous ?

Si Oui, Pouvez-vous me raconter votre expérience vécue avec le racisme ?

² Nous utilisons la notion « faire le feu » car nous avons découvert dans les premiers entretiens exploratoires que c'est l'expression langagière utilisée par les interviewés pour mentionner qu'ils pratiquent de la mendicité dans l'espace publique.

³ (Nous voulons explorer si les relations que nouent les émigrés avec les marocains provoquent chez eux le sentiment d'être exclus et rejeté, ou par contre elles engendrent chez eux des sentiments d'être acceptés et favorisent leurs appartenances à la société marocaine)

6.2 قائمة المشاركين في البحث

- م: 22 سنة، الكاميرون، ابتدائي، عازب. (15 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ع: 18 سنة، غينيا، 4 ابتدائي، عازب. (29 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ع: 21 سنة، الكاميرون، إعدادي، عازب. (7 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ث: 25 سنة، غينيا، جامعي، عازب. (22 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ب، و: 23 سنة، غينيا، 2 ثانوي تاهيلي، عازب. (10 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 د، أ: 18 سنة، غينيا، إعدادي، عازب. (11 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 س، ع: 18 سنة، غينيا، 2 ثانوي، عازب. (27 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 غ، إ: 18 سنة، غينيا، 2 إعدادي، عازب. (12 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ف، غ: 21 سنة، غينيا، إعدادي، عازب. (17 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ك، ع: 24 سنة، ساحل العاج، ابتدائي، عازب. (09 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ك، ع: 28 سنة، غينيا، غير متمدرس، عازب. (16 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ع، ه ش: 20 سنة، مالي، ابتدائي، عازب. (8 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 م، ك: 25 سنة، جامعي، عازب. (18 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ه، ش: 19 سنة، غينيا، إعدادي، عازب. (13 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)
 ي، ج: 24 سنة، ساحل العاج، ابتدائي، عازب. (26 غشت 2018). الهجرة والهشاشة والهوية. (ياسين البجديني، المحاور)

7. قائمة المراجع

7.1 المراجع باللغة العربية

- أحو صبري. (2016). المغرب والهجرة القادمة من إفريقيا جنوب الصحراء. قطر: مركز الجزيرة للدراسات.
 الأمم المتحدة. (2022). تقرير حالة الهجرة الدولية لعام 2021: بناء مستقبل أفضل للمهاجرين واللاجئين في المنطقة العربية. الأمم المتحدة.
 البجديني ياسين. (2024 أ). الهجرة وتجارب الهشاشة السوسيو-اقتصادية بالمغرب: دراسة سوسولوجية للمهاجرين المنحدرين من المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى. المجلة المغربية للبحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، 3(3)، 107-136.
 البجديني ياسين. (2024 ب). البناء الاجتماعي للهجرة الدولية والتغير الاجتماعي في المجتمع المغربي: حالة الريف الشرقي. أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب.
 البجديني ياسين. (2021). تجربة الهجرة وأثرها على سيرورة إعادة بناء الهوية الاجتماعية: حالة المهاجرين الأفارقة من دول إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بالمغرب. تأليف خالد القضاوي، و فؤاد فرحاوي، الهجرة وتفاعلاتها في عالمنا المعاصر (الصفحات 141-159). وجدة-المغرب: مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
 البجديني ياسين. (2019). تجربة الهجرة لدى الشباب في وضعية هشاشة اجتماعية وأثرها على إعادة بناء الهوية: حالة الشباب الإفريقي المتحدر من المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى. رسالة ماجستير، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب.
 الدواي عبد الرزاق. (1992). موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر: هيدجر، ليفي ستروس، ميشيل فوكو. بيروت-لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
 المالكي عبد الرحمن. (2015). الثقافة والمجال: دراسة في سوسولوجيا التحضر والهجرة في المغرب. فاس-المغرب: مختبر سوسولوجيا التنمية الاجتماعية-جامعة سيدي محمد بن عبد الله.
 المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي بالمغرب. (2018/37). رأي حول: الهجرة وسوق الشغل، إحالة ذاتية. الرباط-المغرب: المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي.
 المجلس الوطني لحقوق الإنسان. (2013). الأجانب وحقوق الإنسان بالمغرب: من أجل سياسة جديدة في مجال الهجرة واللجوء. الرباط-المغرب: المجلس الوطني لحقوق الإنسان.
 المندوبية السامية للتخطيط. (2024). الإحصاء العام للسكان والسكنى 2024: الخصائص الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية للسكان (مذكرة حول النتائج الرئيسية). الرباط-المغرب: المندوبية السامية للتخطيط.
 الوزارة المكلفة بالمغاربة المقيمين بالخارج. (2014). الاستراتيجية الوطنية للهجرة واللجوء. الرباط-المغرب: الوزارة المكلفة بالمغاربة المقيمين بالخارج وشؤون الهجرة.
 ستيفن كاستلز، و ميللر مارك. (2013). عصر الهجرة. (منى الدروبي، المترجمون) القاهرة-مصر: المركز القومي للترجمة.
 غيدنز أنتوني. (2005). علم الاجتماع (الإصدار 4). (فايز الصياغ، المترجمون) بيروت-لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
 نوربرت إلياس. (2014). مجتمع الأفراد. ترجمة: هاني صالح. اللاذقية-سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

7.2 رومنة المراجع العربية

- Alhou, S. (2016). Morocco and migration from sub-Saharan Africa (in Arabic). Qatar: Al Jazeera Center for Studies.

- United Nations. (2022). International Migration Report 2021: Building a better future for migrants and refugees in the Arab region (in Arabic). United Nations.
- EL BOUJADAINI, Y. (2024a). Immigration and socio-economic vulnerability experiences in Morocco: A sociological study of immigrants from sub-Saharan African communities (in Arabic). Moroccan Journal of Research in Humanities and Social Sciences, 3(3), 107–136.
- EL BOUJADAINI, Y. (2024b). The social construction of international migration and social change in Moroccan society: The case of the Eastern Rif (in Arabic). Doctoral dissertation, Mohammed First University, Oujda, Morocco.
- EL BOUJADAINI, Y. (2021). Immigration experience and its impact on the process of reconstructing social identity: The case of African immigrants from sub-Saharan countries in Morocco (in Arabic). In K. Al-Qadawi & F. Farhawi (Eds.), Migration and its interactions in our contemporary world (pp. 141–159). Oujda, Morocco: Center for Human and Social Studies and Researches.
- EL BOUJADAINI, Y. (2019). Immigration experience among youth in social vulnerability and its impact on identity reconstruction: The case of African youth from sub-Saharan communities (in Arabic). Master's thesis, Mohammed V University, Rabat, Morocco.
- Addouai, A. R. (1992). The death of man in contemporary philosophical discourse: Heidegger, Levi-Strauss, Michel Foucault (in Arabic). Beirut, Lebanon: Dar Al-Taliaa.
- El maliki, A. R. (2015). Culture and space: A study in the sociology of urbanization and migration in Morocco (in Arabic). Fez, Morocco: Laboratory of Social Development Sociology – Sidi Mohamed Ben Abdellah University.
- Economic, Social and Environmental Council of Morocco. (2018/37). Opinion on: Migration and the labor market, self-referral (in Arabic). Rabat, Morocco: ESEC.
- National Human Rights Council. (2013). Foreigners and human rights in Morocco: Towards a new policy on migration and asylum (in Arabic). Rabat, Morocco: CNDH.
- High Commission for Planning. (2024). General Population and Housing Census 2024: Demographic, social, and economic characteristics of the population (Summary of main results) (in Arabic). Rabat, Morocco: HCP.
- Ministry in Charge of Moroccans Residing Abroad. (2014). National Strategy for Migration and Asylum (in Arabic). Rabat, Morocco: Ministry in Charge of Moroccans Residing Abroad and Migration Affairs.
- Castles, S., & Miller, M. (2013). The Age of Migration (in Arabic, M. Al-Droubi, Trans.). Cairo, Egypt: National Center for Translation.
- Giddens, A. (2005). Sociology (4th ed., in Arabic, F. Al-Sayyagh, Trans.). Beirut, Lebanon: Arab Organization for Translation.
- Elias, N. (2014). The Society of Individuals (in Arabic, H. Saleh, Trans.). Latakia, Syria: Dar Al-Hiwar.

7.3 المراجع الأجنبية

- Autin, f. (2010). La théorie de l'identité sociale de Tajfel et Turner. Récupéré sur « Préjugés & Stéréotypes »: www.psychologie-sociale.org
- Camilleri, C. (1998). Identité et gestion de la disparité culturelle: Essai d'une typologie. Dans C. Camilleri, J. Kastarsztein, E. Lipiansky, H. Malewska-Peyre, I. Taboda-leonetti, & A. Vasquez, Stratégies Identitaires (pp. 85-110). Paris: P.U.F.
- Camilleri, C. (1989). La culture et l'identité: champ notionnel et devenir. Dans C. Camilleri, & M. Cohen-Emerique, Choc de cultures: concepts et enjeux pratiques de l'interculturel (pp. 21-37). Paris: L'Harmathan.
- Camilleri, C., Kastarsztein, J., Lipiansky, E., Malewska-Peyre, H., Taboda-leonetti, I., & Vasquez, A. (1998). Stratégies Identitaires. Paris: Presses Universitaires de France.
- Castles, S. (2016). Understanding global migration: a social transformation perspective. Dans A. Amelina, K. Horvath, & B. Meeus, An Anthology of migration and social transformation: European perspective (pp. 19-41). Switzerland: Springer International Publishing.

- Cohen, J. H., & Sirkeci, I. (2016). Cultures of Migration and Conflict in Contemporary Human Mobility in Turkey. *European Review*, 381-396.
- Dubet, F. (1994). *Sociologie de l'expérience*. paris: éditions du seuil.
- Haut-Commissariat au Plan. (2020). *La Migration Internationale au Maroc: résultats de l'enquête Nationale sur la Migration Internationale 2018-2019*. Rabat: Haut-Commissariat au Plan.
- Hamzaoui, M. (2007/2). Question sociale et fragilisation du lien social. *Empan*(66), 34-39.
- Oppenheimer , A. (2002). Identité. Dans DE Mijolla, *Dictionnaire international de la psychanalyse* . Paris .
- Paugam, S. (2008). *le lien social* (éd. Troisième édition mise à jour). (Que sais-je?) Paris: puf.
- Potot, S. (2001). Migrations et construction identitaire: le cas des Roumaines en France. Dans H. Berthleu, *identifications ethniques: Rapport de Pouvoir, Compromis, Territoire* (pp. 155-170). L'Harmathan.
- Sayad, A. (1999). *La double absence*. Paris: du Seuil.
- Urry, J. (2007). *Mobilities*. Cambridge/Malden: Polity Press.
- Véronique, D. (1991). le racisme dans les relations interethniques. *l'homme et la société*(102), 75-92.
- Vitorino, A. (2021). Foreword. In IOM, *World Migration Report 2022* (pp. xii-xiii). Switzerland: International Organization for Migration.
- Weber, M. (1995). *économie et société*. (E. Chavy, & e. de Dampierre, Trads.) Paris: Agora-Pocket.

Migration and Identity in the Contexts of Migratory Transition: A Sociological Study of Immigrants from Sub-Saharan Africa in the Moroccan Society

Yassine El Boujadaini

Department of Human sciences, Faculty of Languages, Arts and Human Sciences, Hassan I University, Settat, Morocco.

Corresponding Author: y.elboujadaini@uhp.ac.ma

Received: 20/08/2024. Revised: 05/11/2024. Accepted: 27/05/2025. Published : 31/03/2026

DIO: 10.35517/AAUP-2026.V12.1.13

Abstract

This paper explored the migratory experiences and identity strategies of immigrants originating from sub-Saharan African societies, employing a sociological approach grounded in qualitative empirical research. The study concluded that migration in African contexts is driven by the legacy of colonialism, the international division of labor, and the fragility of social ties, along with the desire to repair and reinforce these ties through migration as a form of existential adventure. Moreover, migration and development policies implemented at both African and European levels have failed to ensure safe migration, contrary to the promises of international and regional discourses promoted by global organizations and European states. These states are often identified by migrants as destinations for their migratory projects, based on the social, developmental, and human rights conditions shaped by colonial-era capitalist policies and post-colonial national elites. Such policies have rendered migration costly across human, social, economic, political, and relational dimensions, as evidenced in migrants' lived experiences and their identity strategies aimed at achieving their migration goals and adapting within transit societies. The paper argued that rather than framing African migration as a social problem, states should collaborate to address its irregular forms. Migrants should not be viewed solely as victims of human trafficking networks, but as conscious, rational, and strategic individuals capable of evaluating the economic dimensions of their journeys. Their migratory actions reflect the developmental realities of their countries of origin, which result from colonial interventions, domestic political dynamics, and a profound loss of hope for the future. Migration thus becomes a personal and collective effort to contribute to societal transformation by reshaping individual and communal realities. The migratory experiences of sub-Saharan African immigrants are deeply meaningful social processes, shaped by their biographical trajectories and the dynamics of their social interactions. These experiences inform identity strategies aimed at achieving cohesion and social integration within the Moroccan society, serving as a preparatory phase for realizing migratory aspirations in Europe. Through self-mobilization, migrants strive to overcome deprivation of material and symbolic resources that would enable them to pursue life projects aligned with their personal aspirations. In doing so, they engage in existential self-management, demonstrating their capacity to choose a way of life and to struggle for self-affirmation within a global political climate that perpetuates vulnerability and subjugation, rendering human beings subordinate instruments in service of imperialist goals and ruling classes.

Keywords: Migration, Social Identity, Migratory Experiences, Identity Strategies, Sub-Saharan African Immigrants, Moroccan Society.